الفصل الثالث

الغربة في شعر

مصطفى جمال الدين

معنى الاغتراب

من الصعوبة جداً تحديد معنى شامل للاغتراب، وبالرغم مما كُتب حوله فإنه ما يـــزال يعاني كثيراً من الغموض، وربما كان ذلك أمراً طبيعياً، إذ من الصعب تعريف المفهومـــات الأساسية تعريفاً دقيقاً [١]

ولو حاولنا الرجوع إلى معنى الاغتراب وما حيك حوله من تعريفات، فلابـــد مـــن الرجوع إلى تعريفين له، الأول (لهيجل) الذي يراه أنه وضع ينشأ حينما يطرأ تغـــيير في مفهوم شخص ما عن ذاته [٢]

أي أنه ليس ناتجاً بيد الإنسان نفسه، وإنما وضع يُفرض عليه، سواء أكان سياســياً أو اقتصاديا أو اجتماعيا !!

أما الثاني وهو الذي يعده أحمد شقيرات مدعاة لعجز الإنسان وجهله بالقوانين الـــتي تسير هذه القوى [٣]

طبعاً وهذا غير ممكن وقد يصبح غير صحيح؛ لأنه رأي خاطيء كما أعتقد طالما يحيل الاغتراب إلى ظروف خارجة عن المرء أولاً ثم يبتليه بوضع سياسي أو اجتماعي متغطرس وظالم وخاصة على الأقلام المثقفة والمتعلمة !!

فما عليهم إلاَ الهجرة وتحمل مآسي الاغتراب !

---

١ - أحمد عوده شقيرات (الاغتراب في شعر بدر شاكر السياب) دار عمّار، ط ١، عمان ١٩٨٧، ص١٢ .

٢ - ريتشارد شاخت (الاغتراب) ترجمة كامل يوسف حسن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ١٩٨٠ ص٩٧ .

٣ - أحمد شقيرات (الاغتراب في شعر السياب) ص ١٤

ومهما كانت أسباب الاغتراب التي ذكرناها هنا وفي فصول أخرى من هذه الدراسة فهي مدعاة إلى التعب والبؤس والظلم الذي يكون بالتالي هاجساً للإنسان يفجر فيه الطاقات الإبداعية والثقافية؛ لأن شعور الشاعر في الغربة وما تجره علية من المتاعب تفجر في أخيلته صوراً إبداعية يسطرها بهذه القصائد الجملية ؛ لذا نرى الشعر العراقي بصورة خاصة حافلا بمضمون الاغتراب لما نرجعه للأسباب واردة الذكر واضطهاد ..

السلطات الدكتاتورية ! المتسلطة على رقاب الشعب ' وعليه أرى أن أثبت في هذا الفصل المختصر: ما أثر الاغتراب على نفسيه الشاعر المبدع مصطفي جمال الدين وشعره؟ لأن للبعد عن الوطن و الأهل والحبيبة تأثيراً واضحاً في تلك النفسية المبدعة حيث نراه يجمع بين الأطراف هذه في جل قصائده التي بقيت خالدة، وقبل أن أبدأ بتأثير الغربة فيه لابد من تحديد :

مرحله الغربة التي تبدأ من تاريخ ١٩٨٠ – ١٩٩٦ وهي المرحلة التي بدأ فيها الشاعر غربته عندما أُريد منه أن يمجد نظام صدام حسين آنذاك فخرج عند ذاك إلى الكويت التي كانت قريبة منه، ومنها إلى لندن ثم عاد إلى الكويت بالوقت التي بدأت حرب صدام حسين مع إيران، وكانت الكويت إحدى الأيادي التي ساعدت على تسعير نيران هذه الحرب وساعدت صدام عليها، وبالتالي سُجن الشاعر لمناهضته لنظام صدام وأريد إرجاعه إلى بغداد وقتها إلاَ أن عدول الحكومة الكويتية عن هذا الأمر وطلبهم من المعتقلين أن يختاروا البلد الذي يرومونه فاختار الشاعر سوريا، وهناك بدأت غربته في سوريا البلد الذي كان نظامه مناوئاً لنظام صدام فاستقبل بحفاوة من قبل رئيس النظام ووزير الدفاع مصطفى طلاس، وبادلهم الشاعر المودة نفسها !

وهنا بدأت مساعدة الشاعر لإخوانه المغتربين هناك ومساعدتهم على تقصي الغربة ومآسيها، وقيامه بترؤس الوفود للمؤتمرات العربية والعالمية لشرح مظلومية العراق ومعاناته من نظام الطاغية .

وهذه الفترة لها تأثير واضح في قصائده الكثيرة مثل ((يقضان، على ضفاف القـــدس، حلم أمة، من الجنوب إلى الجنوب، لرمادها ورماد الوطن ... وغيرها كثير))

فكانت صرخته بهذه القصائد التي بقيت خالدة، تثير إعجاب الآخرين مـــن القـــوى الإنسانية في العالم وتؤجج سخطها على نظام الطاغية يومها وهي تحكي هـــذه الغربـــة والمأساة التي يلاقيها المغتربون، فيقول في شوقه هذا :

((يا أنت يا وطناً حملت ربوعه

في غربتي وجمعته بشتاتي

عيناك نبع رافديه وملتقى

فرعيك خضر مروجه النظرات))

فهو يرى كل الأشياء التي يراها في الغربة وكأنها في بلده، حيث تهيم ذاكرتـــه دائمـــاً حول مروج بلاده؛ لأنها تعلقت بكل شيء فيه يحن إلى أنهار بلاده وأهوارهـــا وطيورهـــا وخرير سواقيها وثغاء ماشيتها، إلى عزف الرعاة وملاعب الصبية هناك، ويتذكرها وكأنه إذ ذاك بينهم، في ملاعبهم وبين أهله يستمع لأحاديث دواوينهم هناك :

((بردى يرق فأحتويه لأنني

ضيعت في عينيك عذب فراتي

ورأيتني وأنا (بجلق) مالئاً

سوق الشيوخ علي ست جهاتي))

فالشاعر يفتش في الوجوه والأشياء التي يراها عن ملامح بلاده، يفتش بأنهـــار الغربـــة ويميزها كنهر الفرات ودجلة، في شوارعها ويحيلها إلى شوارع بغداد والنجف، في المبـــاني في كل شيء يراه ويؤثر في ذائقته ويحيل ذاكرته إلى صور مبدعة تقف أمام أنظارنا، تؤثر

فينا نحن الآخرين الذين قد لا نعي معنى الغربة و لم تؤثر فينا هذا التأثير الذي نـــراه عنـــد المبدعين من أدبائنا وشعرائنا، فهو لا يتأثر من غربته وحسب لكنه يتأثر من غـــيره مـــن المغتربين الذي يرى على وجوههم الاكتئاب والحزن والدموع فينشد راثياً غيره :

((كيف تنسى دموعها الآماق

والفقيدان نبله والعراق))

ثم ينطلق الشاعر الغريب وهو في غربته التي أثرت فيه وفي نفسيته، حيث نراه واضحاً في قصيدته التي أوصى آخر أيامه أن تكتب على شاهدة قبره، أرض النجف الطـــاهرة أن ترعاه وهو ميت إن لم ترعه وهو حي :

((يا رملة النجف الشريف تذكري

ظمأ العيون ففي يديك المورِدُ

حنّت فكان لها بذكرك مسرحٌ

وشكت فكان لها برملك أثمدُ

أشرقت بي نوراً وغرسي ناعم

وزهوت بي ثمراً وعودي أغيدُ

ووقيتني غرر الشباب فما التوت

قدمٌ ولا امتدت لناقصة يدُ

وعبرت بي نهر الكهولة لم يضق

ذرعاً بصاريتي الشراع المجهد

حتى إذا الستون أثقل جذعها

ثلجُ الشتاء وباء ذاك الموقدُ

ألفيتني وملابُ رملك في مدى

عينيَ من زهر الكواكب أبعدُ

ووجدتني أنأى وأحمل في دمي

من ذكرياتك ما به أتجلدُ))

وهكذا بدأ الشاعر غربته ومشاركته المغتربين الذين طوتهم الغربة، لأنه يدرك معنى الاغتراب ويحس بمرارته وعذابه !!

تتجمع المفردات والمعاني وتتصارع فيما بينها لتعطي المعنى والمدلول الذي يعاني الشاعر منه وهو يحتكم بسيف الغربة الذي يحتويه، هذه المفردات والألفاظ التي تكررت في جل قصائده وهو يخاطب الحبيبة والأهل والوطن ويكتئب لغربة الآخرين وهم يئنون من نوبات الفراق عن أهلهم وذويهم، فهو يكلم الطيور تارة والسفن والبحار وأحلامه الضائعة تارة أخرى، ويحن إلى القرب من الأهل والوطن الذي أصبح حافز تأثره ورسم صوره المبدعة .

فهو يخاطب الطيور المهاجرة وهي في أسرابها تأوي إلى أعشاشها ومصدر رزقها، ويتمنى لو يكون مثلها يرتحل إلى بلده ويأوي إلى عشه الذي فارقه وتغرب عنه، ويتصل بمن يحب، وهذه الصرخة يمزج فيها حبه لأهله من جهة والوطن من الجهة الأخرى :

((عودي كما قد كنت عش قصائدٍ

تأوي إليك مهيضة الكلماتِ

قد كنت تحتضنينها مذعورة

وتدللين نفورها بأناةِ

وتحاولين طموح رخو جناحها

ألاَ يطيرَ على مهبٍ عاتِ

طارت وأتعبها الرفيف فلم تجد

وكراً كثغركِ مترف البسماتِ

هياَ أحضني زغباً تعوَد ريشه

ألاَ يراكِ بطيئةَ اللمساتِ))

ثم ينتقل الشاعر انتقالة المبدع إلى مفردات أخرى تدل على السفر والغربة وهو يخاطب السفن والأشرعة والمرافئ، ينظر إلى البحار وهي تحتضن السفن القادمة من بلده والرائحة إليه وهي تضجُ بركابها وملاحيها، وهو يقف على الشاطئ يرمقها بعينين دامعتين، يحتضن قلبه الذي يكاد أن يطير من شدةِ الخفقان، يلتهب بين جوانحه بنار الغربة وفقد الأهل والشوق إليهم :

((لست أدري أأصرع الموج أم أط ..

فو صريعاً ممزق القلب مجهدْ

ناظري في الشراع والقلب في الشاطيء

والجدفُ في ذراعيَ هودْ

.. الهوى يا حبيبتي بحرُ غرقى

شاطئاه من كل ما ظنَ أبعدْ))

ثم يلجأ الشاعر إلى مخاطبة أحلامه الضائعة، ينعاها تارة ويعاتبها أخرى، وقلبه يتصدع لضياعها، ثم يركن إلى السفر مع أحلامه !!

((حلمٌ أفر إلى خلوب ظلالهِ

من لذع هذا الجمر في يقظاتي

وتعلَة العشاق ما هو منعشٌ

ميتَ الرجاء وليس ما هو آتِ))

ظل الشاعر المغترب مصطفى جمال الدين يناغي أحلامه الضائعة ويتمنى تحقيقها، وراح يكتب القصيدة تلو القصيدة عن تلك الأحلام ويتمنى لو يحقق حتى ولو جزء منها، إلا أنه قد باءت كل محاولاته بالفشل، حيث طغت عليه الغربة و لم تترك له مجالاً للاتصال مع محبيه والعيش في وطنه آمناً، حيث إن أصعب شيء على الشاعر أن يرى أحلامه لا تتحقق وهو ذلك العملاق القدير والشاعر الفذْ، ويحس بالخيبة والضياع في ديار الغربة، فكتب إذ ذاك قصائد كثيرة في هذا الصدد مثل ((حلم أمة وعذاب)) وغيرها فيقول في قصيدة (عذاب):

((أنا ههنا لم أجن من

حلمي سوى تعب وجهدْ

أسوان لم تحمل سوى

سيجارتي ناري وحقدي

قد كان لي صدر أع..

زُ من النيم العذب عندي

رحبٌ أريحٌ عليه أتعا ..

بي ..وآلامي.. ووجدي

حتى إذا قربت من

شفتيَ كأسك يا عذابي

أحسست أن العاطشَ ال ..

هيمانَ يكرع في سراب))

أي كلما وصل تحقيقها وجدت نفسي أكرع في سراب وهكذا ظل ديوان شـــاعرنا مترعاً بهذه القصائد الجميلة التي تدل دلالة واضحة على أحلامه الـــتي لا تفارقـــه وهـــي تطوف به حول وطنه وأهله يحمل فانوسه المضيء لينير الدرب للذين أطفـــأت أنـــوارهم تفاهات النظام المجدور، وبعدهم عن رؤيا الحقيقة والرشاد !!

فالغربة والاغتراب يختلف معناه وتأثيره من شخص لشخص، لكنه في فصيل الشـــعراء نجده شيئاً آخر، يؤثر أيما تأثير، ويظهر واضحاً في سكناهم ومعنوياهم وكتابـــاهم، فهـــو مليء بالتخيلات والتأملات النابعة من عمق الصراع الذهني وما يمليه على فكر الشاعر من التغرب والبعد من الوطن والأهل والأحبة، عند ذاك يبدأ الشاعر ببث لواعجـــه وشـــوقه وتأمله في خيال مترع بالصور المبدعة التي تنقله إلى دياره بين أهله وذويه، ينشأ بعدها نوع من الاضطراب النفسي الذي بدوره تنطلق الصور لرسم هذه القصائد الماثلة أمامنا، والتي بقيت خالدة على أمد الدهور !!!